

ندرة البطولة

للاستاذ عباس محمود العقاد

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروى ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ، ويسأل معهم: «هل تجد في الشعراء أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟» وهل تجد في النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة! وهل تجد في الغناء أمثال اسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي؟، وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلاً: «يظهر لي مع الأسف أن الظاهرة صحيحة، وأن الجيل الحاضر في الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوايغ ولا ينتج كثيراً من الأبطال، وأن طابع هذه العصور هو طابع المؤلف والمعتاد، لا طابع النابغة والبطل، ثم يستعرض الأسباب ويختتمها بقوله: «ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة، والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة، وليس له أن يفوت بفوائده. فإذا شغلنا موضوعات أخرى عن تناوله في الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدي الرأي فيه»

ورأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال. وأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس

إن الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال

وهذا الذي ينسأه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان

فن أمثلة ذلك سؤا لهم: «هل تجد في الشعراء أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء؟» فالذين يسألون هذا السؤال يحسون الماضي كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو العصر الذي نعيش فيه وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الخامس، أي نحو ثلاثمائة سنة!

وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام، ومن الحضر إلى البادية وينسون أن العصر الحاضر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذي يبدأ بفتوة الشاعر وينتهي بوفاته

وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين، فإنهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلك العصور

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم: ما هي المزية التي كان بها النابغ القديم «نابغ» من قرينه الحديث؟ فلا يسألون مثلاً: ما هو كتاب الجاحظ الذي يستعجزون أبناء عصرنا عن الاتيان بنظيره؟ فإن لم يكن كتاب فما هو الموضوع؟ وإن لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة! ولو كلفوا أنفسهم سؤالاً كهذا مالت معهم كفة الميزان وعلموا أن الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون إلى أن يتلذذوا على أناس من المتخلفين، وقلبا يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلي وإبراهيم بن المهدي ومن جرى مجراهما من المطربين في العصور الأولى. فإذا سمعوا من هذا أو ذاك؟ ومن أين لهم أن الموصلي يبلغ شأو سلامة حجازي أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلاً عن سبق الذي لا يجارى والبون الذي لا يدرك؟

أما أنا فأغلب الظن عندي أن الأمر معكوس، وإن ألحان الموصلي لا تعدو أن تكون مزيجاً من تنعيم البدو وصيغة

الحضارة المستعارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتي على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق ، وإن لم يكن معروفاً بحروف النوطة وأصوات السماع كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة في العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها في العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا إلى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدوني أو جنكيز خان قبل أن يرجعهم في فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ولوانهم رجعوا إلى تلك الوقائع لما اكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الأكار

ودع أنهم ينسون أن كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وأن الظفر وحده ليس بشيء أن لم تنظر معه إلى عوامله ودواعيه وتبين أنها صالحة للتكرار في كل وقعة وكل حين

ودع أنهم ينسون أحكام المصادقات والعوارض وإنما تندر في الزمن الحديث وتكثر في الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون في نسيانه بعض اعذار لمن ينسونه ، ولكن كيف تراهم يحارون الأقدمين في مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهي قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أرباباً وأنصافاً أرباباً وقديسين وأشياء قديسين في رأي الأقدمين ؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم في عصرنا قبل أن نسقط في الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب ؟ أن هذا الخلق أن يضيف إلى فضل المتأخرين لا أن يفض منه ويحيف عليه ، لأنهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون في الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب !

ليس في تاريخ بني الإنسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذي نحن فيه

ليس في تاريخ بني الإنسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا في الحرب العظمى

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والأكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من أبناء الشعب ، كمصطفى كمال ورضا بهلوي وستالين وموسيليني وهتلر وكابلرو وكارديناس . فإذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين في الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى إلى البطولة في صنعهم من هؤلاء ؟

— وليس في تاريخ بني الإنسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر في غزام ملك الانجليز السابق وصديقه السيدة سمبسون . فإذا عندنا من الأدلة على أن غرام هيلانة في طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى إلى البطولة من هذا الغرام ؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات في مصر والهند والصين .

— فإذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلال الخطوب أوفى من هذا النصيب الذي شهدناه ؟

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر أعجب في كل أمة نموذجاً يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون ياتسن وشيان كاي شيكر وفيصلا وابن سعود

وليس في تاريخ بني الإنسان عصر فيه ما في عصرنا من الحقائق التي تشبه الخيال ، والعبر التي تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التي تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الإنسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية . فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأي حام في ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث في عالم النظريات

— وليس في تاريخ بني الإنسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والنواصات المتفجرة والسفن المدمرة التي يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الأقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان

فإن كنا لا نسمى ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والتبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة ،

الزمن

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

حدث مرة أني سافرت فجأة إلى أوروبا من غير أن يعرف أحد من أهلي وأصحابي - عزمت على ذلك وأمضيت العزم فكانت هذه الرحلة التي لم تكن لي في حساب قبل يومين اثنين. وأسباب ذلك كثيرة يطول شرحها. وركبنا الباخرة فما كان يمكن أن أذهب إلى أوروبا سابحاً، ومضى يوم وثان وإذا بفتاة من عرقناهن على ظهر السفينة مقبلة على تقول:

«هل ضبطت الساعة؟»

ونظرت إلى ساعتها الصغيرة على معصمها ثم رفعتها إلى أذنها فقلت: «دعني هذا لي فأني حاد السمع مرهف... هاتي يدك واسمعي»

قالت: «يظهر أنك لا تسمع إلا ما تريد... لقد سألتك الآن هل أصلحت ساعتك؟»

فقلت وأنا أتعجب: «أصلحتها؟» ومن الذي قال إن ساعتني خربت؟ إلى أؤكد لك أنها من أحسن الساعات... كانت لرجل من يكثر المال في أيديهم يوماً فيذهبون يشترون كل ما يحظر لهم على البال، ويصبحون في اليوم الثاني وقد صفرت أكتفهم فيرهنون ما اشتروا أمس أو يبيعونه... صاحب هذه الساعة شاء أن يرهنها، ثم لم يؤد ما اقترض عليها، فاضطر الصانع اليهودي أن يبيعها... ولا أحتاج أن أقول إنك ترى الرجل الفاضل الذي اشتراها منه،

فألقت إلى ابنة عذبة أدارت رأسي دورة جديدة - وأقول الحق إنها هي التي كانت سبب سفري إلى أوروبا فجأة - وقالت: «لا شك أنها ساعة معرقة في الفخار... ولكنها تحتاج الآن إلى إصلاح»

فقلت ببساطة: «أبدا...»

فقلت: «أسرع... رد العقرين»

فدهشت وقلت: «أردهما... لماذا؟...»

وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم في الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له ندا بين الشعراء المعاصرين، ولكن التواضع من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذي نبغوا فيه، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلفاء أن يبحثوا في زمانهم عن يضارعون نوايج القرن العشرين في العلم والاختراع والموسيقى والفن. كانه فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه، ويقدره خيراً مما قدره، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالأقبال والاعجاب مما كانوا يمثلونها في حياته

أذكر أنني رأيت منذ سنوات في إحدى الصحف الإنجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين في أزياء العصر الحديث، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال: هل تعرفهم؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن. لأن الصور التي رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ماحولهم من هالات الفوارق والمسافات التي يوحيا اختلاف المظاهر والأزياء.

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء أمس في أزياء اليوم، وعظماء اليوم في أزياء أمس، لنعرف مقدار ما نضيفه إلى الغابرين من هيئة الفوارق والمسافات ومقدار ما نسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فإن تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عياناً فلنرسمه بالظن والتقدير. ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلصق مواضع الزيادة والنقصان فيها، ونصلح جوانب الغلو والبخس في كفاتنا، ونغنم تصحيح الميزان في الحكم على الرجال والأزمان، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدي من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب. إذ لا ضرر ولا قصور في اختلاف التفضيل والترجيح متى صححت النظرة واستقام القياس. تلك هي الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بينما كما أراها أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للانصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

عباسي محمود العقاد